درس في السخرية وآخر في التاريخ
(فصل من رواية)

مشهور البطران

كل شيء من حولنا يكبر بسرعة مذهلة، السروات تطاولت وغطت ظلالها الجدار الغربي للمدرسة، وردة الياسمين هي الأخرى زحفت على سور الحديقة واكتنفته بخضرتها، تلك الوردة التي زرعناها ذات ربيع مضى في نشاط مدرسي مع معلم الزراعة الأستاذ سعيد.

حصص الزراعة والرياضة والفن على وجه الخصوص من أجمل الحصص الدراسية، نترقبها على شغف، في حصة الزراعة يرتحل التلاميذ في الهواء الطلق إلى المزرعة التي بدأت تتحول سنة بعد أخرى إلى غابة بما شتلته سواعد الطلاب من أشجار. بعض الأشجار سميت بأسماء من زرعوها. ثمة شجرة توت عملاقة أسميناها "توتة رامي" بقيت حتى وقت قريب.

كانت قريتنا حتى منتصف السبعينيات جرداء فقيرة الخضرة باستثناء المحاصيل الموسمية كالقمح، والشعير، والبندورة، لم تكن أشجار الزيتون أو الفواكه والحمضيات موجودة إلا ندرة، وكان الناس يرتحلون رحلة الشتاء مع عائلاتهم إلى قرى رام الله ونابلس كي يعملوا سخرة في مواسم قطاف الزيتون، يغيبون شهراً أو اثنين ليعودوا "بتنكتين" من الزيت الذي لا يستخدم إلا لتدليك جلود الأطفال حديثي الولادة، وللأكل في حالات شح البدائل. أما رحلة الصيف، فكانت إلى الخليل وحلحول وبيت كاحل للعمل في كروم العنب، حيث يعودون في نهاية آب محملين بالدبس والعنبية والملبن.

من طريف الحكايات التي تتردد في مجالس الناس أن فلاحاً من إذنا حل ضيفاً على ديوان في حلحول، حيث صادف أن رجلاً حلحولياً أحضر قفة من العنب إلى الجالسين، لكنه حين رأي الحارثي اشترط أن من لديه كرم عنب يجوز له أن يأكل. وهكذا حرم الحارثي المشاركة في أكل العنب، معتبراً ذلك إهانة لشرف الفلاحة، فعاد إلى إذنا وزرع أول كرم عنب فيها.

رحلة الشتاء والصيف، إضافة إلى دور المدرسة في مجال التعليم الزراعي، خلقت حالة وعي عند المجتمع تُرْجمت على الأرض ثورة خضراء، لقد شهدت تلك السنة وما تلاها من سنوات حمى زراعية انتشرت عند كل الناس، وحولت الجبال إلى غابات خضراء من الزيتون، واللوز، والعنب.

بقدر الشجيرات التي زرعناها في فناء المدرسة تستطيل قاماتنا، نرتقي من صف لآخر، نكبر ويكبر فينا الحلم والأمل من معايشة أناس نحبهم، أحيانا يتقزم الأمل ويتبدد الحلم حين نصطدم بأناس لا يحسنون استثمار الطفولة. في كل عام، يرتحل فوج من أبطال الصف الثالث الإعدادي إلى ترقوميا أو الخليل، ليكملوا المرحلة الثانوية، محظوظون هؤلاء الطلاب بأنهم يركبون الباص صباح كل يوم، ويجاورون التلميذات الجميلات في المقاعد، وربما يحملون في جيوبهم نقوداً كثيرة.

الأعين شاخصة على ذاك الصف المجاور لغرفة المدير الأسطورية، أحياناً أفكر أنني لا أكبر كما يجب، أود لو أنظر في نفسي وأصرخ: "كل هذه السنين وما زلت في السادس الابتدائي؟".

في مطلع كل عام تودع المدرسة معلمين مرتحلين، وكذا تحتضن آخرين رمت بهم أقدارهم إلى قريتنا النائية. ياسر معلم من قرى دورا الجنوبية، في أول مسيرته التعليمية، طويل وضخم وأشقر، نظرة واحدة منه كفيلة بأن تجعل التلميذ ينهار أرضاً، قيل لنا إنه سيعلمنا التاريخ.

في العادة، يكون الدرس الأول مع المعلمين الجدد درساً في المصارعة، واختباراً في القوة البدنية، وكلما أمعن المعلم في البطش، علا شأنه وقويت شوكته، على هذا النحو يستطيع فرض سلطانه طيلة العام، ويرتاح من شغب "الشياطين الأشرار". حين رأينا ضخامته المنقطعة النظير، لاذ الصف بالصمت، وحُسِمَتْ المعركة لصالحة. دخل الصف ونحن نشبِّك أيادينا طاعة وامتثالاً، على غير المتوقع اعتلت وجهه ابتسامة كشفت عن سن مذهبة منحت ابتسامته بريقاً أصيلاً يعبر عن ثقة لامتناهية بالنفس.

في أول درس طلب منا أن نحكي قصصاً من واقع حياتنا، كانت خطوة مستغربة ومدهشة منه. لم يتجرأ أحد على المبادرة، لم ينجح في جرنا إلى عالم السرد وكأننا بشر بلا حكايات، أو أن طلبه كان خارج أفق التوقع. فطلب منا أن نغنّي، وجم الصف مرة أخرى، في الواقع كنا نخشى أن نكون عرضة للسخرية من الآخرين.

أخيراً رفع رامي يده وطلب أن يغني، كان رامي غلاماً نظيفاً رقيقاً ينحدر من أسرة أرستقراطية، ذكياً ولماحاً ويتمتع بصوت طروب، لكن جسمه

ضئيل ما طبعه بالميل إلى السلم والهدوء إلى أبعد الحدود.

خرج من مقعده ووقف أمام الصف بكل ملاحته المعهودة، وبدأ يتأهب لمطلع أغنية دارجة لسميرة توفيق:

"يا بو رداين يا بو اردانا . . . " .

وما إن انطلق الغلام في شدوه حتى انفجر الصف في ضحكة ساخرة، فارتبك الغلام متعثراً بالخجل وانكمش على شعور عميق بالخيبة، تدخل المعلم وأعاد الهدوء للصف. بعد رامي جاءت مبادرة أخرى من عريف الصف إبراهيم، غلام فاق جسمه عمره بخمس سنوات على أقل تقدير، قوي ومهاب ويتمتع بذراعي مصارع ثيران. غنّى: "بيع الجمل يا علي . . . " .

أغنية باردة، أفضل ما يمكن أن توصف به أنها ثرثرة نشاز لغلام خشن، غناها بصوت أجش مثير للسخرية، ومع ذلك لم يتجرأ أحد على تحريك شفتيه خوفاً من بطش يديه القويتين.

في الدرس التالي، وفيما كنا نهيئ أنفسنا لدرس التاريخ الأول خالف أيضاً توقعاتنا، وطلب منا أن نخبئ الكتب، وقال: "بدل درس التاريخ سأعطيكم درساً في السخرية والضحك" .

وراح يرتجل مواقف ونكات وحركات بهلوانية ساخرة تثير فينا الضحك حتى تدمع العيون. لم يكن لدينا الحاجة كي نسأل أنفسنا: "ماذا يفعل الأستاذ؟" ، وما جدوى ومبرر ما يفعله؟ المهم أننا كنا نعيش معه ساعة من المرح والحرية سرعان ما تفلت مولية الأدبار لدروس البطش والعصمة الأكاديمية والعصامية الهشة.

كنا نعد الأيام في انتظاره كي يعود من جديد، لقد تحولت ضخامته المخيفة إلى دعة وينبوع للألفة والمحبة. في قادم الأيام اكتشفنا أثر تلك الدروس الساخرة، حين صار كل تلميذ في الصف يمتلك الجرأة على الحكي والغناء دون أدنى خوف من سخرية الآخرين. لقد كسر هذا الرجل القادم من أعالي دورا حاجز الخجل فينا.

ذات يوم دخل الصف تلفه مسحة من كآبة كدرت صفاء وجهه، وضع رأسه بين يديه وراح يفكر بعمق وكأن رزية هبطت عليه، سأله تلميذ عن سبب حزنه فقال:

– اليوم قُصِفَ مخيم عين الرمانة.
تيسير يسأل: وأين هو مخيم عين الرمانة؟
آخر: ومن الذي ضرب المخيم؟
– ولماذا يضربونه؟
– ما مصيره؟ كيف نستطيع أن نساعدهم؟

الصف يتحول في لحظات إلى برلمان أطفال انبرى لحل مشكلة تعصف رياحها بالوجود الفلسطيني في لبنان. كل هذه الأسئلة وأنا ما زلت أفكر في كلمة "مخيم" التي ربما أسمعها لأول مرة، الصورة الذهنية التي تشكلت لدي حين سمعت هذه الكلمة هي الخيمة التي ينصبها "الحصّادون" في مواسم الحصاد، ويضعون تحتها أباريق الماء والطعام وصغار الأطفال خوفاً من ضربات الشمس. لكن الأستاذ ياسر يتكلم عن خيام من نوع آخر، خيام يقطنها فلسطينيون مثلنا في العراق، والأردن، ولبنان، وسوريا، هؤلاء هم فلسطينيو الشتات، إنهم نحن، دمنا ولحمنا، كانوا يوماً ما مثلنا يزرعون القمح والبندورة في سهول قراهم، كانوا يوماً ما يسكنون على شواطئ المتوسط ويصطادون السمك من بحر يافا وعكا ويبيعونه في الخليل والقدس، حيث لا بحر هناك ولا سمك.

جمال يسأل: ولماذا لا يبنون بيوتاً من حجارة بدل الخيام؟
رامي يسأل: ولماذا لا يعودون إلى قراهم ومدنهم؟

في هذا الدرس سمعت لأول مرة شيئاً عن "منظمة التحرير الفلسطينية" ، بل إن القاموس استدخل العديد من المفاهيم حول القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، وشخصيات وطنية فلسطينية.

لقد مضى الصف السادس الابتدائي دون أن أتذكر شيئاً عن تاريخ بني أمية والعباسيين، ولكني ما زلت أتذكر تاريخاً شخصياً عشناه لحظة بلحظة مع معلم سوف يخلد في تواريخ شخصية لأربعين تلميذاً.

تم الفصل الخامس
ويليه الفصل السادس

مشهور البطران
معلم وكاتب من إذنا
mashhourbatran@yahoo.com

من مساق "الدراما والكتابة والقص" .

المؤتمر التربوي الثاني
ممارسة المعلمين ومعرفتهم بين
جدل الهوية وفضاء التمهين
10 و11 أيار 2007

يعلن مركز القطان للبحث والتطوير التربوي عن تنظيم مؤتمره التربوي الثاني يومي 10 و11 أيار المقبل في رام الله تحت عنوان: "**ممارسة المعلمين ومعرفتهم بين جدل الهوية وفضاء التمهين**".

رؤية

إن مهنة التعليم، كفعل علائقي، وعلاماتي، في تشابكاته الشخصية والاجتماعية من جهة، والمعرفية والعملية من جهة أخرى، تمثل فضاء للفعل التأملي والتغييري بامتياز، فالتعليم مهنة تخترق من يمارسها وتمس هويته في الصميم، ويمكنه أيضاً أن يخترقها بذاتيته ويعيد صياغتها بشكل يكون فيه تفرده جزءاً حيوياً منها.

ومع أن التعليم يقوم على معرفة المعلمين، معرفة تطبيقية في جوهرها، فإنها تحتمل بالتأكيد أن تكون مجال اختبار وتأمل، ما يجعل عمل المعلمين تطبيقياً يمكنه أن يدخل فضاء الإبداع والإنتاج المعرفي لسببين:

كل فاعل في الحقل الاجتماعي المعرفي يمكنه أن يحيل تجربته إلى معنى جديد ومعرفه جديدة.
إن كل نشاط في أثناء الممارسة الاجتماعية المعرفية، يزيح المعرفة وينزاح بشكل يدفع الفكر إلى الإحاطة بالجديد وتأطيره معرفياً.

منطلق

ومن إيماننا العميق بأهمية تجربة المعلمين في العمل والحياة، ولرؤيتنا للرابط بينهما، نرى ضرورة أن توضع هذه التجربة في سياق تأملي تطويري، عبر مقاربتها سرداً وتأملاً وتفكيراً؛ للكشف عن المعنى فيها، فكراً وسلوكاً، بتحويلها من مادة خام إلى منظومة عمل وخطاطة فكر وصفحة معرفة.

تبئير

ستتركز أوراق المؤتمر وتجاربه في تلك الجدلية بين المعرفة والممارسة، المعرفة كفكر مُفعَّل ومعنى قابل للتطبيق، والممارسة كمساحة فعل واختبار تعلم وتأمل.

محاور

1 . المداخلات الفكرية :

- الفكر التربوي – تفكيك المسلمات واستعادة الوعي .
- البحث التربوي – تحليل للممارسات وتكوين الوعي .
- الفكر التربوي في مواجهة تاريخ طويل من الفعل المؤسسي .
- هوية المعلم بين الفعل المهني والدور المجتمعي .

لا بد من أن تبنى المداخلات النظرية على أسس فكرية، ذات بناء معرفي مفاهيمي متناسق، ورؤيا إنسانية التوجه ثورية الانحياز، تهجس بحلم التغيير نحو الأفضل، وتؤسس لبحث أكثر انفتاحاً على التجربة والممارسة، وأكثر التصاقاً بالعلائقي، وأكثر انهماكاً بالفرد والحرية، وبالمجتمع والعدالة .

والمداخلات في جوهرها تنشغل، بالممارسة التأملية والفكر المُفعَّل وبناء المعرفة وتفردها، وإعادة بنائها داخلياً، وإعادة موضعتها في سياقها الاجتماعي .

نفضل أن تبنى المداخلات على مداخل فكرية عميقة، وتعتمد أساليب التحليل والنقد والتمثيل، وأشكال عرض فاعلة .

2 . التجارب التطبيقية : ممارسة تأملية وتأمل مُفعَّل

تجارب في التعليم المدرسي أو في التكوين المهني والتدريب تتناول :

- انجازات جديدة ونجاحات في الفكر والتطبيق .
- تجارب تربط المهني بالاجتماعي والذاتي بالعملي .
- ممارسات جديدة وقراءات فاعلة .
- تعليم يقود النمو الفردي، ويبني فضاء لهويات حرة متعددة .

نفضل أن تكون التجارب موثقة سرداً أو تصويراً أو الاثنين معاً، لتقديمها بشكل حي، وأن تحتوي على قراءة معرفية وتحليل فكري معمق .

3 . شهادات : إزاحات في العمل وتغيرات في الذات

شهادات لتحولات وتغيرات، في القناعات والمعارف وهوية الذات، "جربت أن أغير عملي فغيرني، هذا ما غيرني وجعلني أفعل بشكل مختلف" .

سرد لشهادات، تختص بفعل، حادث، تدريب، فشل، نجاح دفعني للنظر بشكل مختلف فغير ذاتي وأدائي .

نفضل أن تكون مكتوبة بشكل سردي قصصي وثائقي، يصاحبها نماذج من أعمال وصور ودعائم، ما تُكسبها عمقاً وتأثيراً .

التقديم :

كل من يرغب في المساهمة بإمكانه ذلك، بعد أن يحدد المحور ويقدم تصوراً يحتوي على عنوان المداخلة/ التجربة/ الشهادة، ووصفاً مختصراً لها، واللوازم والمواد الضرورية لإنجازها مع المدى الزمني لذلك، مرفقاً معها سيرة ذاتية مختصرة جداً .

ترسل المساهمات على فاكس رقم : 2963283/ 02 أو على البريد الإلكتروني التالي qcerd@qattanfoundation . org في موعد أقصاه 15 آذار 2007، وسيتم عرضها على لجنة المؤتمر والاتصال بمن تقبل مساهمته ليتم إعدادها للمؤتمر .